٤ أيها المصرى من أنت؟

عندى خزائن الأرض: أطعمت الناس ونسيت نفسى!

د. حسين مؤنس

كنا نحفظ ونحن صغار خطابا منسوبا إلى عمرو ابن العاص يقول فيه «إن مصر لؤلؤة بيضاء وزبرجدة خضراء ...» إلى آخر هذا الكلام المزوق المسجوع الذى نستبعد صدوره عن عمرو بن العاص فى خطابه إلى عمر بن الخطاب. لأن القوم كانوا صحابة فحولا، والصحابة والفحول لا يعرفون زخرف القول ولا يعجبهم تزويق الكلام. لأن السجع لغة الخلّيين، وهو يعجب العوام كما يقول شمس الدين المقدسى فى فاتحة كتاب «أحسن التقاسيم»...

إنما الذى يليق برجل من طبقة عمرو بن العاص عبارة صادقة ذات معنى فاخا ورواها عنه عبد الرحمن بن عبد الحكم، قال: ولاية مصر جامعة لعدل الخلافة.

فهذه عبارة رصينة تسجل فيها حكمة الصحابى الفاتح الجليل عمرو بن العاص. لأن عمرا كان يعرف مصر وخيراتها ومكانتها قبل الإسلام، وهو رجل قرشى لبيب تاجر، يعرف أقدار البلاد، وهو عندما اقترح على عمر أن يفتح مصر كان يعرف أنه يضيف إلى دولة الإسلام الناشئة إذ ذاك بلدا سيصبح من أركانه المتينة ودعائم دولة الإيمان. فلقد كان فتح الشام إبعادا للروم - عن حدود جزيرة العرب، ثم جاء فتح مصر مؤيدا لفتح الشام وقاضيا على كل أمل للروم، وهم البيزنطيون - فى الاقتراب من دولة الإسلام بالضغط كما كان فتح العراق إبعادا للفرس عن عرب الجزيرة والشام. ثم جاء فتح فارس توكيداً لفتح العراق وقضاء لا رجعة فيه لملك الفرس آل ساسان.

وباستكمال فتح فارس تفتحت للإسلام أبواب القارة الآسيوية يوغلون فيها كيف يشاءون ويقدرون. ويفتح مصر ملك العرب ناصية البحر المتوسط وتفتحت أمامهم أبواب القارة الأفريقية يفتحون منها ما يشاءون وما يقدرون عليه. وقد بلغ من جلالة فتح مصر وأهميته أن العرب استطاعوا منها الاستيلاء حتى بلغوا المحيط الأطلسى ثم قلب أفريقية المدارية والاستوائية فيما بعد. ويمكننا أيضا عبر المسلمون إلى القارة الأوروبية، ففتحوا الأندلس وجنوب فرنسا، وأنشأوا لأنفسهم ملكا فى صميم الغرب الأوروبى بنى فكى الأسد، وملكوا نواصى البحر المتوسط ومفاتيحه.

فإذا قال عمرو بن العاص إن ولاية مصر جامعة (أى كلها) لعدل الخلافة، فهذا كلام رجل فحل حكيم يعرف قدر الكلمة ويضعها فى محلها. أما اللؤلؤة البيضاء والزبرجدة الخضراء، فهذا كلام على القلب والبال الذى لا يستطيع من الأمر إلا رقصف الكلام.

وهم يروون لنا تاريخ مصر فى الكتب التقليدية رواية ديوانية خالية من المعنى، لا نفهم معها لماذا كان لمصر فى تاريخ مملكة الإسلام هذا الشأن كله. فهذا التاريخ عندهم دول، أنشأ كلا منها رجل على نهاب اختلس مصر من دولة الخلافة اختلاسا.

فهذه دولة أنشأها أحمد بن طولون، قصر على أيامه طولونية. وتلك دولة أنشأها صعلوك يسمى محمد بن طغج الإخشيد، قصر فى أيامه إخشيدية. وهذه ثالثة أنشأها فى المغرب داعى ينسب نفسه إلى الدوحة النبوية، ولا يعرف أحد من أين ابتلانا الدهر به يسمى عبيد الله المهدى، وهذا الاسم ليس اسما، أو هو اسم لا يدل على شخص بعينه، فكلنا عباد الله أو عبيدات الله إذا شئت، وكلنا مهديون إن شاء الله هدايتنا، وكل مسلم هو فى الحقيقة عبيد الله المهدى، ولقد صدق الرواة عندما قالوا إن المعز لدين الله، أبا تميم بعد، رابع خلفاء الفاطميين فى المغرب وأولهم فى مصر، عندما أحس شك الناس فى نسبه دعاهم إلى مجلسه فى القاهرة، ونثر عليهم دنانير، وقال: هذا نسبى، وهز السيف بيمينه.. وقال: وهذا حسبى..

وهذه الدنانير التى نثرها على الناس إنما هى من مالنا أخذها بغير حق، ومنها أيضا اشترى سيفه فهو من مالنا مسروق، فالمعز على ذلك بكل ما ملك: بدنانيره وسيوفه إنما هو صنعة يدنا وفضلة مالنا، فكيف والله تنسب إليه أو تنسب مصر إليه فتقول هذه مصر الفاطمية؟

وبعد، لما هانت مصر على الله وعلى أهلها حتى تنسب مرة إلى جلف ظالم تركى هو أحمد بن طولون، وإلى جلف طارئ على الملك والسيادة هو محمد بن طغج الإخشيد، وإلى دعى ينتسب إلى السيف والدنانير، إنما مصر العظيمة فى العصور الإسلامية صنعة الله سبحانه إذ أكرمها بالإسلام، ومصر بعد ذلك صياغة أهلها الذين فهموا الإسلام واستوعبوه وأخلصوا له وجعلوا بلادهم قاعدة من أكبر قواعده وموئلا له من تصاريف القدر وغوائل الزمان.

وأقول بعد ذلك إن مصر الإسلامية من صنع أهل مصر الذين أخرجوا مخزونهم الحضارى الذى صنعته أجيالهم فى جاهلية تاريخهم (أى قبل الإسلام) وصاغوه صياغة إسلامية، فأنشأوا عمارة إسلامية مصرية وعلوما مصرية إسلامية فى الطب والفلك والصيدلة، وأضافوا إلى البعد الحضارى الإسلامى كله بعدا جديدا راجعا مع الزمن القديم أربعة آلاف سنة، وانظر والله إلى جامع أحمد بن طولون، وهو أقدم أثر معمارى مصرى إسلامى بقى لنا كاملا، ألا ترى فيه رصانة المعمارى المصرى الذى أنشأ الأهرامات، وجلال العلم الهندسى المصرى الذى صنع المسلات؟..

وبعد هذا أسألك : من صنع من ؟ ابن طولون والإخشيد والمعز الفاطمي ومن بعدهم صنعوا مصر ، أم مصر هي التي صنعتهم ؟ ومصر بدون أحمد بن طولون والإخشيد هي مصر ، أما ابن طولون والإخشيد بدون مصر .. فيها صفران في غاية الضآلة حتى لا تراهما العين .

بل صلاح الدين الأيوبي نفسه بجلالته وعلو مقامه وتقديرنا له وعظيم ما قام به في سبيل الإسلام ، ماذا كان يكون لولا أنه انتسب إليها وقام في بلادنا ؟ .. ولولا مصر ورجالها وأموالها وخيرها وبركاتها ما كان ليستطيع القيام بما قام به ، وإلا فالأكراد كانوا ملء الدنيا ، وفي بلاد العراق والشام كانت منهم الوف ، فلماذا هذا وحده أصبح بطل الإسلام ورمز فحولته ومكارم أخلاقه ؟

الجواب واضح ، ولقد سبق صلاح الدين رجل من أبطال الإسلام لا يقل عن صلاح الدين فحولة أو عبقرية أو إيمانا ، وهو نور الدين محمود ، ولقد كان بطلا مجاهدا مثابرا إسلاميا حقا زعزع قوى الصليبيين في بلاد الموصل والشام ، وقضى عمره كله على صهوات الخيل أو في المساجد ساعيا في إنقاذ الإسلام ، وهو الذي أدرك بالفطنة وإلهام الإسلام أن العدو الفرنجي لن يقتلع إلا من مصر ، فمضى إلى صنعها إلى جبهة الجهاد ، فلما صنعها واكتملت عدة النصر أدركته المنية ، ونهض صلاح الدين فأتم العمل وكسر ظهر الصليبيين في معركة حطين ، وسرى بعد قليل من الذي قهر الصليبيين في سهل حطين .

إذن فكيف ندرس تاريخ مصر الإسلامية ؟

بدراسة تاريخ الشعب المصري نفسه بعد أن أسلم واستعرب .. ولقد أسلم شعب مصر طواعية ، لما استحته على الإسلام أحد ، إنما شعب تحضر بفطآنته وموروثه الحضاري رأى الهدى والنور والحضارة في الإسلام فدخل فيه ، والمصري منذ قامت له دولة كان باحثا عن الهدى ودين الحق ، وكان يرى الله بنور قلبه ويرمز له بأقوى ما عرفته عيناه وهو الشمس ، وواحد من الفراعنة وهو أخناتون كان موحدا عبد الله سبحانه .

وعندما دخلت المسيحية مصر دخل فيها أهل مصر ، ولكن القساوسة والرهبان ورجال دولة الروم أفسدوا على المصري أمان قلبه وسلام نفسه مما ابتدعوا من مذاهب يضل فيها العقل ويتوه الرشاد ، حتى إذا أهل العرب بالإسلام على مصر ، كان بطرك الإسكندرية وهو بنيامين أو أبو ميامين معزولا مختفيا يترقب ، فأمنه العرب ، وظهر وعاد إلى كرسيه ، ورأت أغلبية المصريين أن الإسلام دين الحق الواضح الأبلج فدخلوا فيه عن نفس راضية ، وأحبوا العرب الأول لأنهم وجدوا فيهم سماحة وبرا ومكارم أخلاق ، فدخلوا فيهم وأصبحوا عربا ، ولقد اتخذ العرب من أمم الإسلام جميعا موالي ، فهناك موالي من الفرس وموالي من الترك وموالي من أهل المغرب وموالي من أهل الأندلس إلا أهل مصر ، فما دخل أحد منهم في ولاء قبيلة عربية ، ولقد تسرى العرب من بنات البلاد المفتوحة جميعا إلا مصر ، فما تسرى أحد من العرب من بنات مصر ، إلا رسول الله ﷺ ، أو هذا من الله سبحانه تكريم لأهل مصر وتشريف ، ولم يدخل المصريون في العرب إلا عربا أبدادا ، ولقد ذكر السيوطي في « حسن المحاضرة » نقلا عن الحسن بن زولاق أن مصر ذكرت في القرآن الكريم تصريحا وتلكيبة ثمانٍ وعشرين مرة ... !

ثم يقولون مصر الطولونية ومصر الإخشيدية ومصر الأيوبية ، بل - يا للعار - مصر المملوكية !

(كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا)

واقرب الأمر إلى فكرك فأسألك .. هل يجوز لك أن تقول إن مصر هذه الحرة المباركة الناهضة التي تعيش فيها اليوم من صنع محمد

مصطفى كامل

علي وأولاده ؟

وهل يصح في فهمك أن تقول : مصر العبدية العلوية .. أو مصر الإسماعيلية .. أو مصر الفؤادية .. أو مصر الفاروقية ؟ ألا ترى أن في ذلك مهانة لمصر وإساءة ؟

فهذا من ذاك

والصحيح أن تقول : مصر التي صنعها وحررها شعب مصر بقيادة أبنائها الأبرار الواصل عرابي ومحمد عبيد ومصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول وجمال عبد الناصر وأنور السادات .

ومع كل من هؤلاء من أبدوه من أبناء مصر ونصروه بإحسان وإيمان في ميادين العلوم والفنون والحضارة والعرفان ، فكل علم من هؤلاء يقوم على رأس جيل من بناة مصر .

وإذا كان هؤلاء هم الذين بنوا مصر في أيامنا هذه .. فإنك تستطيع أن تقول إن كل عصور مصر الإسلامية بنتها أجيال المصريين بقودهم زعماؤهم ، ولكل جيل زعيم أو رب أسرة ، لأن المصري كما قلنا يحتاج بطبعه إلى زعيم قائد والد لينهض معه ويواصل مسيرة التاريخ .

وتلك هي القراءة الصحيحة لتاريخ مصر ، ولقد اتضح هذا في ذهنك لأني ضربت لك المثل بعصرك الذي تعيش فيه فأدركته .

فلترجع مع الزمان القهقرى من مولد مصر الإسلامية العربية لترى أني أدعوك إلى فهم تاريخ مصر صدقا وعدلا .

لندع تواريخ الولاة والحكام والسلاطين جانبا إذن ، لأن هؤلاء لم يصنعوا تاريخ مصر الإسلامية ، ولاهم سادوها قط ، إنما الذين صنعوها وسادوها هم المصريون أهل مصر .

إن مراجع تاريخ مصر الإسلامية وافرة ، حتى إن أسامينا تملأ مجلدات ، لأن أهل مصر - إحساسا منهم بقدر بلدهم - كتبوا في تاريخها وحضارتها كما لم يكتب أهل بلد عن بلدهم .

ولكني أدعوك أن تراجع معي كتابا مختصرا في تاريخ مصر والعلم فيها ألفه جلال الدين السيوطي ، وهو شاهد واحد من شواهد بناة مصر من أهل العلم ، وقد توفي سنة ٩١١ هجرية مخلفا وراءه نحو ثلاثمائة كتاب في كل علم من علوم الإسلام ، فهو نفسه مدرسة بل جامعة ، فما بالك وفي تاريخ العلم في مصر عشرات مثله ؟ وما بالك ومن بين أبناء مصر الثاني وضع كل منهما معجما للغة العربية لا تضع مثله إلا المجامع العلمية الحافلة ، هما المرتضى الزبيدي صاحب تاج العروس ، وابن منظور صاحب لسان العرب ، وكل من المعجمين جمع فأوعى ؟ !

في حسن المحاضرة يتبع جلال الدين السيوطي أجيال العلماء في تاريخ مصر الإسلامية ، وفي كتاب آخر ألفه واحد من أبناء مصر هو أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي ، يروي ذلك الرجل تاريخ مصر السياسي ، فتري منه إذا قرأته قراءة متأنية أن الذين صنعوا تاريخ مصر السياسي هم المصريون فقط .

ونبدأ بحسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة .

يبدأ السيوطي بالكلام عمن حملوا علوم الإسلام إلى مصر من الصحابة ومن جاء بعدهم من التابعين ، نقلا عن عالم مصري هو محمد بن الربيع الجيزي ، وهو ابن الربيع الجيزي صاحب الإمام الشافعي ، وزاد عليهم من فات ابن الربيع الجيزي ذكره .

وقد أحصى السيوطي في هذا الفصل نحو مائة وخمسين صحابيا ، وفي الرقم ولا شك مبالغة ، فقد دلت الأبحاث على أن أهل كل بلد إسلامي أرادوا تشريف بلدهم ، فقالوا إن فلانا وفلانا من الصحابة نزلوا بلدهم أو أدركهم الموت فيه ، بل اخترع بعضهم أسماء صحابة لم يوجدوا قط ، وهذا منزع غير سليم ، ولكن الدافع إليه هو الذي وحب الرسول صلوات الله عليه وصحابته ، وهو منزع كريم يدل على عاطفة وإن لم يكن عليا .

ولكنك تستطيع أن تقول وأنت آمن .. إن الصحابة الذين دخلوا مصر كثيرون ، وأكثر منهم التابعون رضوان الله على هؤلاء وأولئك ، وإذا كان الصحابة والتابعون هم القاعدة الأولى لعلوم الإسلام ، استطعت القول بأن علوم الإسلام في مصر قامت على القاعدة السليمة ، وأننا بدأنا تاريخنا الحضاري في ظل الإسلام من البداية الصحيحة .

وبعد أن يفرغ السيوطي من الصحابة والتابعين وتابعيهم يضع عنوانا هو : « طبقة نل هذه ، يذكر تحته علماء أجلاء وفدوا على مصر ، ومعظم هؤلاء يختم اسمهم بلفظ المصري ، والمراد بذلك أنهم عرب أصبحوا مصريين ، والكثيرون من هؤلاء لم يستقروا في الفسطاط بل في بلاد وقرى مصرية أخرى مثل : سعيد بن ذكريا الأدمي المصري أبو عثمان ، مات بأخميم سنة ٢٠٧ هجرية ، وطلق ابن السمح بن شرحبيل المصري الاسكندراني ، وعبد الله بن يحيى المعافري البرلسي ، وهكذا .

ومعظم هؤلاء وتلهم رجال الحديث الكبار : البخاري ومسلم وأبو داوود والنسائي وابن ماجه .

ويحدثنا السيوطي بعد ذلك عن الأئمة المجتهدين الذين عاشوا في مصر أو ولدوا ومانوا فيها ، أي أن مصر حطت خطوة أخرى في بناء العلم الإسلامي ، فأصبحت هي نفسها مركز إفاء وتشريع إسلاميين ، وهنا نقرأ أسماء نفر من أجلاء أهل العلم في تاريخ الإسلام كله ، على سبيل المثال :

علي بن رباح اللخمي ، ونافع مولى ابن عمر فقيه أهل المدينة ، وبكر بن سوادة الجذامي ابن نحامة المصري الفقيه مفتي مصر .

وأبو رجاء يزيد بن حبيب الأزدي المصري فقيه مصر وشيخها ومفتيها ، وابن لهيعة عبد الله بن عقبة الحضرمي المصري قاضي مصر ومسندها ، وأبو الحارث الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي المصري ، وكان صاحب مذهب فقهي يعدل المذاهب الأربعة

الكبرى . وقد ولد بطلفشندة من قرى الدلتا سنة ٩٤ هجرية .

وأبو محمد الخير عبد الله بن وهب بن مسلمة المصرى الفهرى .

وعبد الرحمن بن القاسم بن خالد العتق المصرى .

والإمام الشافعى أبو عبد الله محمد بن إدريس . وقد أقام فى مصر السنوات العشر الأخيرة من عمره ، وفيها وضع مذهبه المعروف .

وعلى يد أولئك الأعلام تأصل العلم فى مصر ، وأصبحت مصر أحد كبار مراكزه ، ثم أصبحت مركزه الأكبر ابتداء من العصر الأيوبى . بعد تحويل الأزهر من مركز للدعوة الشيعية الإسماعيلية إلى قاعدة العلم الصحيح ومركز السنة والجماعة .

وكانت مراكز العلم الكبرى فى عالم الإسلام كثيرة ، ولكن واحدا منها لم يبلغ ما بلغه الأزهر من القوة العلمية ، حتى أصبح قاعدة الفقه والعلوم الإسلامية الكبرى فى عالم الإسلام .

ومرد ذلك كما هو واضح يرجع إلى وجوده فى مصر . فقد زخر الأزهر بالعلم والعلماء ، واتسعت مجالاته فيها ، حتى شملت الفلك والطب وكل المعارف الإسلامية والإنسانية فى العالم إلى يومنا هذا . بل بلغ الأمر أن العالم فى دنيا الإسلام لم يعد يعترف له بالتقدم إلا إذا كان أزهريا .

وهذا هو طابع مصر التقليدى على مر العصور . فقد استعادت مصر فى الأزهر ما كان لها من الصدارة فى العلم فى العصور القديمة .

وعندما نقرأ تاريخ الجبرتى نشعر تماما أن شيوخ الأزهر هم سلاطين مصر فعلا . أما سلاطين المماليك ومن جاء بعدهم من باشوات الترك وبكوات المماليك فكانوا إلى جانب الشيوخ زبدا ذهب جفاء .

كان الأزهر مركز علم عالميا ، فقصده العلماء من أقاصى الدنيا . ولكن شيوخ المصريين بسبب تواضعهم وعدم إتقانهم لفنون الدعوة لأنفسهم لم يكسبوا من الأزهر ما كسب الفقهاء غير المصريين ، وتتضح هذه الظاهرة فى العصر المملوكى عندما كان السلاطين أجانب جهلاء يستطيع أصحاب الدهاء من أجانب العلماء أن يسيطروا على عقولهم بما يبدون من التقرب إلى السلاطين والفوز برضاهم وعطاياهم .

وهؤلاء الذين فازوا بالشهرة والمال من دون المصريين هم الدهاة الذين مهروا فى التجارة وجعلوا العلم أيضا تجارة ، والمصرى – لأمر ما – لم يتبع فى التجارة وما يتصل بها من الدعاية للنفس وترويج البضاعة : علمية وغير علمية ، وتسويقها .

لم يعرف المصرى التجارة بالعلم ، ولكن غيره من الشيوخ الوافدين عرفوا ذلك الفن وتفوقوا على المصريين فيه .

حتى لقد كان العالم غير المصرى يفد على مصر فيطمع فى أن يتولى كبار الوظائف من دون المصريين . وكان المصرى قد سئم سيادة الأجانب على أرضه فانطوى على نفسه فى مدنه وقراه . والتف حول شيوخه وترك الأمور تجرى فى أعنتها ، وعزت عليه نفسه أن يذلها لغير الله .

انطوى على نفسه وتلك كانت خطيئته الكبرى فى العصور الإسلامية . لقد نسى نفسه ولكنه لم ينس وطنه ، استمسك بأرضه بيديه وأسنانه ، ولكنه لم يلتفت إلى المال ، واحتاج إلى زعيم والد ليضعه فى مكانه ، هو يحتاج دائما إلى زعيم والد ، لأنه دائما عضو فى أسرة .

ومن غرائب ما نقرأ أن ابن خلدون ، وقد نبت به بلاد الإسلام كلها ولم يجد الأمان إلا فى مصر ، لم يقنع بالأمان بل مضى يطلب الرياسة على علماء مصر . وابن خلدون مؤرخ وفيلسوف عظيم ، ولكنه لم يكن قط ندا لفقهاء مصر فى ميدان الفقه ، ولم يحمد الله أن عينه السلطان برقوق شيخا لمدرسة الحديث وقاضيا للقضاء المالكية ، بل استكثر أن تؤخذ منه الولاية وتعطى لغيره من أبناء مصر ، وقال فى ترجمة حياته ، التعريف بابن خلدون ، كلاما لا يسر فى حق علماء مصر .

وهناك مثل واضح عندنا يدلك على عزوف علماء مصر عن كسب المال أو التقرب للسلطان بالعلم والاشتغال بالسياسة فى وقت كانت السياسة فيه كلها خطايا وذنوبا ، بينما دعا غيرهم لنفسه دعوة واسعة وكسب الشهرة والمال .

فقد وفد على مصر حوالى سنة ٦٤٠ هجرية شيخ كبير من شيوخ الشام يسمى عز الدين بن عبد السلام ، وكان عالما عظيما فعلا ، شهد له الناس جميعا بالصدارة فى العلم والفقه ، ولكنه كان يداخل سلاطين المماليك محاسنا لهم أحيانا ومنكرا عليهم فى بعض الأحيان ، وفى كل مرة يدعو لنفسه دعوة عظيمة ، وعلى رغم إنكار الفقهاء لما كان رجال الصوفية يزعمونه من أن العلم يأتيهم من الله فذا فى الصدور دون درس أو مذاكرة ، فقد لبس عز الدين بن عبد السلام خرقة التصوف من شهاب الدين السهروردى ، وقد بادله أبو الحسن الشاذلى ثناء بثناء ، فقال إنه ليس على وجه الأرض مجلس فى الفقه أبهى من مجلس الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، وما على وجه الأرض مجلس فى الحديث أبهى من مجلس الشيخ زكى الدين عبد العظيم ، وما على وجه الأرض مجلس فى علم الحقائق أبهى من مجلسك .. (أى مجلس الشاذلى) .

فى نفس العصر عاش مصرى لا يقل عن عز الدين بن عبد السلام علما هو الشيخ تقى الدين أبو الفتح محمد الملقب بابن دقيق العيد ، وهذا اللقب أطلقه عليه الفلاحون لأن لبابه كانت نظيفة ناصعة البياض مثل دقيق العيد ، وقد درس ابن دقيق العيد على عز الدين بن عبد السلام كما درس على غيره ، وكان الرجل أعلم أهل زمانه بالفقه فعلا ، واعترف له الناس بأنه وصل إلى درجة الاجتهاد ، وانتهت إليه رياسة العلم فى زمانه وشدت إليه الرحال ، وقال فيه الحافظ فتح الدين بن سيد الناس لم أر مثله فيمن رأيت ، ولا حملت عن أجل منه فيمن رويت ... » .

ولكن الشيخ ابن دقيق العيد لم يعرف فن الدعوة لنفسه ، ولم يداخل السلاطين لا راضيا ولا منكرا ، وكان معظم أيامه ملازما قريته « قوص » مبتعدا عن نفر من الفقهاء كانوا يقعون فيه ، ومنهم الشيخ عز الدين بن عبد السلام أستاذه ! قال فتح الدين بن سيد الناس عن ابن دقيق العيد : « ولم يزل حافظا للسانه ، مقبلا على شانه ، ووقف نفسه على العلوم وحصرها ، ولو شاء العاد أن يحصر كلماتها لما استطاع حصرها ، ومع ذلك فله بالتجريد تحقق ، وبكرامات الصالحين تحقق ... » .

فهذان عالمان جليلان متعادلان فى العلم ، شامى متداخل كثير الكلام والحركة ومداخلة أهل السلطان ، ومصرى مقتصر على العلم منصرف إلى الدرس وحده على علو درجته فى زمانه ، فطار أحدهما بالشهرة البالغة حتى لقب بشيخ الإسلام ، وأقام الثانى فى قريته معظم وقته بعد أن بلغ أعلى الدرجات ، وذلك حتى لا يتلبس بشىء من أمور السياسة والسلاطين .

وهذه مصر فى تلك العصور ، كانت فى يدها خزائن الأرض ، ولكنها نسيت نفسها .

وقد قلت آنفا إن المصريين كانت لهم اليد الطولى فى كسب معظم انتصارات الإسلام العسكرية ، ولكن المؤرخين – ومعظمهم كانوا ديوانيين يكتبون للسلاطين – لم يعترفوا لأهل مصر بما قاموا به فى ميادين الجهاد .

ولكننا نحن اليوم بعد درس طويل ، نستطيع القول أن الذين شجعوا صلاح الدين الأيوبى على ملاقاة الصليبيين فى حطين سنة ١١٨٧ كانوا المصريين . فقد خرج المتطوعون منهم أولا إلى

أحمد عرابى

محمد فريد

فلسطين لمحاربة الصليبيين ، وكان معهم عدد كبير كذلك من المجاهدين المتطوعين من أهل الشام ، ولكن المصريين كانوا أوفر عددا .

وهؤلاء المصريون هم الذين نزلوا بحطين عندما وجدوا أن الصليبيين يتجمعون فيها استعدادا للهجوم على أرض الإسلام ، وبدأ المصريون مناوشة الصليبيين من طلوع الشمس ، وحصروهم حصرا شديدا ، وكان اليوم حارا ، والصليبيون متدرعون بالحديد ، فاشتد عليهم الحر واستبد بهم العطش ، فزادت جرأة المصريين عليهم ودخلوا عليهم المعسكر وبدأ القتال ، واستشهد من المجاهدين المصريين مئات ، ولكنهم كذلك قتلوا من الصليبيين مئات .

وهنا أدرك صلاح الدين بعبقريته أن الفرصة قد سنحت فسار بعسكره وقواده فدخلوا سهل حطين ساعة الظهر ، أى والحر فى أقصاه ، وانقضوا على الصليبيين ، فما هى إلا ساعات حتى كان قد كسر ظهرهم ، وكان النصر العظيم .

هكذا كانت بداية النصر الحقيق على أيدى المتطوعين والمجاهدين المصريين ، وكان النصر النهائى لصلاح الدين .

ولكن المؤرخين الرسميين نسوا النصر كله لصلاح الدين ورجاله . ومثل ذلك حدث فى موقعة عين جالوت .

وما أكثر انتصارات مصر التى أهملها المؤرخون .

لأن المصرى يعمل وهو صامت ، فيفوز بالاسم والشهرة والثمرات غيره من دونه . ومن هنا كان من الحق أن نقول .

لقد جعل الله بيت المصرى وسط روض هش مستدير على ضفاف نهر الحياة ، وعنده خزائن الأرض ، فأنفق عمره يطعم الناس ، وينسى نفسه !